الدين والسلم الاجتماعي

Mohamed Rabie

لعب الدين وما يزال يلعب دورا محوريا في حياة المجتمعات التي تعتبره منظومة من الشرائع المقدسة التي تحدد واجبات المؤمن تجاه ربه وتقوم بتنظيم علاقته بغيره من مؤمنين وجماعات تؤمن بأديان مختلفة، خاصة الجماعات التي تختلف كثيرا أو قليلا عن دينها وثقافتها. ولقد كان لهذا الموقف من الدين والأقليات الدينية والثقافية آثار سلبية على حياة كافة المجتمعات والجماعات المؤمنة عبر التاريخ بسبب اتجاه أتباع كل دين للتفرقة ضد أتباع الديانات الأخرى. وفي ضوء قيام رجال الدين بتنصيب أنفسهم أولياء على المؤمنين وناطقين رسميين باسم الإله الذي يؤمنون به، فإن أثر الدين على حياة البشر كان في معظم الحالات كارثيا. لقد تسبب الفكر الديني الذي طوره رجال الدين وحل محل الشرائع الدينية في إثارة خلافات واسعة وأحيانا عميقة بين المؤمنين قادت إلى تجزئة المؤمنين إلى فرق مذهبية متصارعة تسببت في مصادرة حرية الإنسان المؤمن وغير المؤمن، وتدمير وحدة المجتمع وقيادته نحو التمزق والتخلف علميا واقتصاديا وسياسيا.

أما الديانات التي قامت على شرائع من صنع البشر وتوخت وحدة المجتمع بالتركيز على روحانيات الحياة وعمل الخير فقد تجنبت الصراع الدامي التي تعرضت له المجتمعات التي آمنت بالمسيحية والإسلام. لقد ادعت هذه الديانات أن كل شيء جاءت به من شرائع ونصوص مصدره الإله الذي أمنت به، وأن رجال الدين مخولين من قبل الإله نفسه بقيادة المجتمعات المؤمنة وإدارتها؛ الأمر الذي جعلها تتعامل بقسوة بالغة مع غير المؤمنين والخارجين من أتباعها على فكرها اللاهوتي. وهذا تسبب بدوره في تمزيق وحدة الشعوب ووقوع حروب دامية كان من نتائجها القضاء على حريات المواطنين عامة، وإشاعة أجواء من الخوف والرعب في كل مجتمع خضع لسيطرة فكر ديني. ولقد ترتب على ذلك عجز الفكر والعلم والاقتصاد عن تحقيق التقدم، وخنق عمليات الخلق والابتكار وانعدام العمل المؤسسي القائم على حماية الحريات العامة وعدالة توزيع الموارد الوطنية المتاحة.

تقول البوذية إن هناك 4 حقائق أزلية ليس بإمكان الإنسان أن يغيرها، الأولى هي أن كل شيء في هذا العالم غير كامل ومؤلم، والثانية هي أن أوجاع الحياة تنبع من رغباتنا كبشر، والثالثة هي أنه يوجد علاج لكل أمر من تلك الأمور، وتقول الرابعة إذا أردت أن تضع نهاية للأوجاع والآلام فعليك أن تتبع ثمانية نصائح: العمل السليم، الحياة السليمة، التفكير السليم، الجهد السليم، التركيز السليم، الفهم السليم، والنية السليمة. وهذا يعني أن تكون إنسانا مثاليا في سلوكك، صادقا في كلامك، عقلانيا في تفكيرك، عمليا في جهدك ونشاطاتك، وأن تركز على ما تعمل وما تفكر به، وأن تفهم

جيدا ما يجري حولك من أحداث وتطورات وتحولات اجتماعية وثقافية، وأن تتعامل مع جميع هذه الأمور بنية حسنة. وتضيف البوذية قائلة إن كل ميلاد جديد يعني هوية جديدة، وهذه عبارة يمكن تفسيرها بأنها تعني أن كل نقلة حضارية يعيشها الإنسان تشكل بحد ذاتها تحولا في هوية ذلك الإنسان، أي في ثقافته ورؤيته لمختلف الأمور والأفكار التي المترسخة لديه والأماكن التي يحبها ويسعى إلى العيش فيها.

من ناحية ثانية، يقول الفكر البوذي إن الاعتماد على رجال السياسة والدين يسلب شخصية الإنسان ويقوض قدرته على التصرف بناء على رؤيته الخاصة للواقع الذي يعيشه وظروف ذلك الواقع، لأن كل إنسان يعيش في واقع مختلف عن معظم الناس، ويمر بظروف حياتية قد لا تشبه ظروف غيره من البشر. ولما كان كل إنسان يواجه مخاوف كثيرة، فإن الفكر البوذي يقول بأن المخاوف عامة تنقسم إلى قسمين: مخاوف حقيقية يراها الإنسان ويعيشها، ومخاوف نفسية لا يراها ولكنه يحس بها وبثقل وطأتها على حياته وفكره. المخاوف الحقيقية يمكن مواجهتها، طبعا إذا توفرت لدى الإنسان المعني الإرادة والأدوات المطلوبة؛ أما المخاوف النفسية فليس لدى الإنسان قدرة على مواجهتها لأن مصدرها هو الإيمان الذي لا يعطي المؤمن خيارات كثيرة، مع أن الإيمان المعني لا وجود له في الحياة ككيان فاعل يمكن التفاعل والتفاهم معه.

في المقابل نلاحظ أن الفكر المسيحي جاء امتدادا للفكر اليهودي بهدف إصلاحه، خاصة وأن النبي عيسى ولد يهوديا ومات يهوديا. لكن اليهود حاربوا عيسى وفكره بعنف ورفضوا الاعتراف بشرعيته وشرعية فكره الذي لم يقدم شيئا جديدا في بادئ الأمر. لهذا عاش الفكر المسيحي نحو أربعة قرون مشردا على هامش تاريخ لم يعيره أهمية تذكر، وذلك حتى تبناه حاكم روما في القرن الرابع ميلادي، حيث أصبح دين الإمبراطورية الكبرى في ذلك الزمن. وفي أعقاب هذا التطور، قامت الكنيسة والدولة المسيحية باضطهاد اليهود وممارسة كافة أنواع القهر والتفرقة ضدهم وحرمانهم من حقوق إنسانية كثيرة تسببت في اضطرارهم للعيش في جيتوات لقرون قبل أن يعيدوا النظر في معظم تقاليدهم وعناصر ثقافتهم ومكونات عقيدتهم، ويسيطروا على قطاع واسع من العمل التجاري والمالي في أوروبا. ومع أن هذا النجاح تسبب في عودتهم إلى مسرح الأحداث بقوة، إلا أنه كان سببا في تمزقهم إلى جماعات متزمتة وأخرى متحررة تكره بعضها بعضا، لكنها لم تدخل في حروب دامية لأنها كانت تعيش في ظل دول مسيحية لا تتعاطف معها.

إن من يعرف هذا التاريخ، يدرك أن إمكانية إحلال السلام في فلسطين لن يكون على أساس حل الدولتين الذي تتبناه وتدعو إليه معظم دول العالم، بمن فيها أمريكا، وهيئة الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان الدولية. ويعود السبب في هذا الأمر لطبيعة تركيب المجتمع اليهودي الذي تحكمه قيادات دينية متعددة الأطياف يغلب عليها التزمت والميل نحو التفرقة ضد كل من لا يومن بما تؤمن به، وبالتالي ليس بإمكانهم تشكيل كيان سياسية يعيش الجميع فيه معا في

ظل ظروف يسودها السلام والوئام. وفي الواقع تُظهر التطورات في المجتمع الإسرائيلي اليوم مدى العداء الذي يكنه المتطرفون دينيا وعرقيا من اليهود لأبناء جلدتهم الذين يتخذون مواقف دينية لبرالية أقل كراهية لعرب فلسطين. إن كون هؤلاء أقلية غير متزمية من النواحي الدينية لا ترى بديلا لحل يتيح المجال لتعايش عرب فلسطين ويهودها في ظل أوضاع توفر للجميع السلم والأمن والاستقرار. لذلك كان على محبي السلام في العالم أن يركزوا على حل الدولة الواحدة التي تجمع يهود فلسطين وعربها من مسلمين ومسيحيين تحت سقف دولة ديمقراطية واحدة منزوعة السلاح تحقق المساواة بين كافة المواطنين في الحقوق والواجبات.

إن كون غالبية يهود فلسطين قد هاجروا إليها من أوروبا خلال القرنين الأخيرين، حرمهم وحرم أجدادهم من فرصة المرور بتجربة التحضر الذي صنعها المجتمع الزراعي قبل نحو 12 ألف سنة، أي قبل ظهور الديانات والمدارس والمدن والنشاطات التجارية والمالية بآلاف السنين. إذ قام المجتمع الزراعي في تلك العهود بتطوير البيئة المواتية لميلاد الحضارة بتقاليدها وقيمها الإنسانية التي تبنتها الديانات فيما بعد. لذلك يمكن القول أن يهود فلسطين، فيما عدا من جاء منهم من مصر والمغرب وتونس لم يمر بتجربة التحضر التي بدأت وترعرت ونضجت في فلسطين قبل نحو تسعة آلاف سنة. ولهذا فيما يبدي عرب فلسطين، مسلمين ومسيحيين، استعدادهم للعيش مع اليهود بسلام، لا يرى معظم اليهود الذين قدموا من أوروبا لفلسطين كمستعمرين سوى ممارسة النشاطات التي جاؤوا من أجلها وهي العيش من أجل الدين على حساب غيرهم، أو ممارسة الأعمال التجارية والمعاملات المالية التي تقربهم من إله المال، حتى وإن تتطلب الأمر ارتكاب جرائم كثيرة في سبيل تحقيق أهدافهم هذه.

أما الإسلام والفكر الديني المنبثق عنه فيميل إلى التركيز على العبادات وطقوسها أكثر من تركيزه على معاملات الناس فيما بينهم وسلوكياتهم تجاه بعضهم البعض. إذ يعتبر الفقهاء أن التزام المؤمن بما يسمى "أركان الإسلام الخمس" أساس الإيمان وجوهر واجبات المسلم تجاه ربه؛ لكن القرآن لم يذكر شيئا اسمه أركان الإسلام. الأمر الذي يعني أن الأركان هذه جاءت بمثابة اختراع فقهي لضمان سيطرة رجال الدين والحكام على عامة المسلمين وتكفير من لا يؤدي تلك الشعائر حسب تعاليمهم. أما الشعائر المعنية فهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، إقامة الصلاة، أداء الزكاة، الحج، وصوم رمضان. ويعتمد الفقهاء في هذا الأمر على حديث نبوي جاء ذكره في كتاب صحيح البخاري، علما بأنه لا توجد كلمة واحدة بخط البخاري، وأن عملية جمع الأحاديث بدأت بعد موت الرسول بنحو 130، ما يعني أنه من شبه المستحيل أن يكون قد وصلنا حديث كما جاء على لسان الرسول. لذلك لا أقول في كتبي ومقالاتي "قال رسول الله"، لأن من يستخدم هذا التعبير يكون إما كاذبا يحترف الكذب لخدمة مصالح خاصة، أو مؤمنا بسيطا تم تزييف وعيه وضميره منذ الصغر، ما جعله لا يفرق بين الكذب والصدق.

لكن لو نظرنا إلى الدور الذي تؤديه هذه الأركان في حياة عامة المسلمين فإننا لن نجد أثرا إيجابيا لأي منها سوى ركن أداء الزكاة، وذلك على افتراض أن أموال الزكاة تُنفق على الفقراء والمحتاجين من المسلمين. أما الأمور الأخرى، وإن كان من المحتمل أن تسهم في تحسين فرص المسلم الملتزم في دخول الجنة كما تعتقد غالبية المؤمنين، إلا أنها لا تخدم هدفا إنسانيا عاما نشاهد معالمه على أرض الواقع كإقامة جامعات تركز على العلوم والتكنولوجيا وتطوير الاقتصاديات الوطنية، وتعمل على رفع مستوى التربية والتعليم واللحاق بالعصر، وإنما نلاحظ استثمار أموال كثيرة في إقامة جامعات ومستشفيات ربحية بهدف جمع المزيد من المال والإثراء على حساب المحتاجين، خاصة المؤمنين الملتزمين منهم. إذ فيما تفتقر معظم الجامعات التجارية هذه للمؤهلات المطلوبة من حيث المواد الدراسية والأجهزة التكنولوجية وحرية الفكر، تركز المستشفيات على تقديم خدمات لزبائنها لا ترقى إلى المستوى الذي يحتاجه الناس. أما البنوك "غير الربوية" فهدفها الرئيسي ليس توفير خدمات لا توفرها البنوك العادية، وإنما استغلال جهل المؤمن الملتزم والإثراء على حسابه ومستقبل أبنائه وبناته وأوطان المسلمين عامة.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 60 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com